

السر في إفشاء السر

يحكى ان أحد سلاطيننا ابتلى في قصره بداء ما
مثله داء ، أصاب الكبير والصغير . ولم ينج منه معين
ولا كاتب ولا وزير .

كان كلما دبر مع وزرائه وحاشيته وذوى الروى
من خاصته شأنًا من شؤون الدولة ، أو رسم خطة ،
او أبرم ما يستوجبأخذ الخطة التامة وكتمان السر ،
تهاونوا في الامر ، وأذاعوا السر ، فلاخته الاسنة ،
وبلغ سمع من لا ينبغي أن يعلمه . فتكثر الدسائس ،

ويُعسر التنفيذ . ولم يعد للدولة مهابة ، ولا كلمة مطاعة ،
وأيقن السلطان في الأخير بأنه وإن تزود بما يتزود به
السلطين الراشدون ، من نية صالحة ، وعزم وحزم .
وصرامة وجد ، لا يجديه ذلك نفعا . ها دام وزراؤه
وخاصته يعيشون بأسرار الدولة ، ويعانونها سرا يذاع
على الجمهور .

ولذلك فإنه بعدهما قاوم هذا الداء بلين ، وعرض
ولام وعاتب وأنذر ، أخذ يقاومه بشدة ، وهدد ووبح ،
وهجر وعزل ، وعاقب وشدد في العقاب ، ولكن عبئا
حاول ، لأن الشر تاصل ، ولم يعد ينفع فيه علاج ،
والقلوب إن لحقها الخرق لا يردعها تهديد ولا عقاب .
وأفضى الأمر إلى أن أيّس من رجاله ونفّض منهم
يليه ، وأبعدهم عنه جملة ، وسلك سياسة قوامها القاء
مسؤولية الدولة على كاهل رجل واحد ، يتخذه وزيرا ،
ويجعله لاسرار الدولة أمينا ، ويكون للوزير مطلق

التصرف في اختياد من يعيونه في تدبير شؤون الدولة، من كتاب وولاة وغيرهم . وان ذاع سر من أسرارها يكون هو المسؤول وحده .

ولكن أين للدولة بوزير قادر على صيانة الأسرار ؟ انه يتوسم في الرجل الرشد والثبات ، وتسند إليه الوزارة ، وسرعان ما تزل به القدم ، ويتبعد سنة من سبقوه ، ويتبين أنه أضيع للاسرار من الغربال للملاء . ويحل به العقاب المحتم . ولم يعد أحد يجرأ على تحمل هذه الامانة الثقيلة ، وأصبح السلطان ولا وزير يشـدـ أزرـهـ ، وتعـرضـ هيـكلـ الدـوـلـةـ لـلـانـهـيـارـ ، فاستدعـىـ أـهـلـ الـخـلـ وـالـعـقـدـ منـ رـعـيـتـهـ ، وـعـرـهـمـ أنـ لـيـسـ فـيـهـ عـلـىـ الـخـلـ وـالـعـقـدـ منـ رـعـيـتـهـ ، يـسـتـطـيـعـ كـتـمـانـ السـرـ ، وـتـسـتـقـيمـ كـثـرـتـهـ رـجـلـ وـشـيـدـ ، يـسـتـطـيـعـ كـتـمـانـ السـرـ ، أـحـوالـ الدـوـلـةـ عـلـىـ يـدـهـ . فـاـنـبـرـىـ لـلـكـلـامـ رـجـلـ مـعـرـوفـ

بـصـدـقـ الـلـهـجـةـ وـقـالـ :
انـ تـدـبـirـ شـؤـونـ الدـوـلـةـ يـاـ مـوـلـاـيـ ، أـمـانـةـ ثـقـيـلـةـ .

نستوجب بالخصوص كتمان السر ما من ريب في ذلك . فكتمان السر ركن الملك ودعامته ، ومن حق الحاملين لسرار الدولة أن يكتموها حتى عن الأب والأم والأخ والزوجة والصديق . والسلطان قد يتحمل كل نقص في حاشيته ، ولا يتحمل أن يذيع أحد أسراره . الا ان الكتمان وان ظهر هينا فليس بالهين ، وما الوزراء الا بباقي الناس ، ليس من الانصاف أن تامرهم بخلق نحن عنه عاجزون ، وتودع صدر أحدهم ما ضاق عنه صدرك ، وتحب أن يبقى صدره هو تنبيشه الاسرار ، وتصر عليه ناز الكتمان . وما القلوب يا مولاي الا مضيغة من دم لا يمكن أن تكلف الا وسعها ، وان المرء ليتزود بما يطيقه من حزم وصبر لحجم لسانه ، ولكن الصدور تفيض بالاسرار كما يفيض الكأس عند امتلائه . والمرء لا يزال في كربة ووحشة ما لم يجد من يبته أسراره ، وان الصبر على التهاب النار أهون من الصبر على كتمان

الاسرار ، وقد يلقى الرجل يا مولاي بالكلمة ثم لا يلبث
أن يتغطى إلى ما جناه على نفسه ، فيعود عليها باللائمة ،
وكم يحاسب نفسه ويوطد العزم على اصلاحها ، ولكن
أى جواد لا يكتبو ؟

ويتفض الجموع بغير جدو ، وتمر أيام ، ولا تزداد .
الحالة إلا فسادا ، وذات يوم بينما السلطان في حيرة
ونكدر لما يعلمه من أن فساد الدولة سيف أن لم تقطعه
قطعا ، اذا ب الرجل يأتيه ويقول له :
أنا لها ! أنا لها !

ويسائله السلطان . ويجيب بأنه على بيته من
الشرط ، وما يتعرض إليه من عقاب شديده ان لم يكتسم
السر . فتسند إليه الوزارة ، ويصبح الناس يتطلعون
لما أمره . ولا يفتاؤن يتساءلون ويلتقطون أخباره ،
وكثرت في شأنه التأويلات والظنون ، وقال الناس عنه
بأنه أخذ بالخزم تشبيثا بالمثل القائل : جانس قبل ان

تجالس ، واقتداء بالعقلاء الذين لا يسررون من هو أعلى منهم مقاما ولا كفشا لهم ، وإنما يسررون من هو دونهم ليسهل عليهم معاقبته أن هو أفضى سرهم . ولكن تبين بعد أن هذا الظن خاطئ ، لأن الوزير لا يخالط أحدا ، ولا يفتح بابه لأهل الفضول الذين لهم شغف بالتقاط الأخبار ، والاستدراج بالناس ، والتلطف بهم ، إلى أن يستخرجوا ما عندهم من أسرار ، كلفهم ذلك ما كلفهم من ضياع وقت ، وسقوط همة ، وارتكاب دنایا ، وبذلك استطاع الوزير أن يتغلب على الأمو ، ويسلك بنفسه مسلك النجاة . فقربه السلطان واجتباه . ورفع مرتبته وحباه .

ولكن ما قول الوزير فيما يرتكبه من عمل يسعو إلى الارتياح؟ انه كثيرا ما يأوي إلى خلوة بمنزله، ويوصد دونه الباب . فما السر في ذلك؟ فهل يتدبّر في المشاكل في هدوء وانفراد وسکينة الظلام؟ أم يفرو من الناس

وفضولهم وخداعهم وشروعهم ؟
 ان رجلا في مقام وزيرنا لا ينجو بنفسه ولو اتخذ
 العزلة سدا منيعا بينه وبين الناس ، فالاعداء والحساد
 لك بالمرصاد ، يراقبون حركاته وسكناته ، وفلتان
 لسانه . وما من صغيرة او كبيرة الا ويتخلونها وسيلة
 للنيل من مقامه . ولكن اي شيء يعاب على الوزير وقد
 وفي بما تعهد به احسن الوفاء ؟

انه لم يثبت انه افشي سرا يعجب كتمانه ، ولكن
 الوزراء ومن في حكمهم من ذوى المناصب العالية ،
 والمسؤوليات الكبيرة ، كما يؤاخذون على اخفاقهم
 يؤاخذون على نجاحهم ، اذ يكثر التساؤل عن سر
 نجاحهم ، وعن الثمن الذى ادوه للحصول عليه ، ومن
 أين اخرج هذا الثمن ، وذلك ما حدث لوزيرنا الكتروم ،
 اذ ما زال الناس يتسائلون عن سر نجاحه ، حتى ادى
 الامر الى أن سأله السلطان نفسه يوما .

اتظن اننا عنك غافلون ؟ ما سبب انزواتك في
خلوة لك بيتك ؟ من الذى تختلى به لتبته اسرار الدولة
التي أنت أمين على حفظها ؟

قال الوزير : قصتى يا مولاي غريبة . ولا يصدقها
 الا من وقف على حقيقتها ، فهل يسعدنى مولاي بزيارة
 خلوتى ؟

فيسعده السلطان ، وتحقق الزيارة المباركة .

حقا ، ان للوزير أمينا لاسراره . وقف عليه السلطان
 بنفسه وشاهده بعينى رأسه . هو رجل وجيه ، يرتدى
 ملابس فاخرة ، وعلى رأسه قلنسوة ، وعمامة منمقة ،
 وفوق ملابسه جلباب شفاف ، وسلهام ناصع البياض ،
 هادىء ساكن ، مت Hollow بوقار اهل الحكمة الصامتة .

لم يخف الوزير شيئا عن السلطان . فيبين له
 كيف يدخل على نجواه ، وكيف يسلم عليه مطاوطى على الرأس ،
 وكيف يجشو أمامه محتشما ، وكيف يفتح له صدره على

هصارعية ، وكيف يفرغ له خبايا نفسه ، فلا يترك سرا من أسراره الخاصة أو أسرار الدولة إلا ويفشيها له في غير تردد ولا ريبة ، ولا اتخاذ حيطة ، والأمين ينصل ويحسن الانصات . وقد يكون الانصات أصعب من البيان ، وبذلك يروح الوزير على نفسه . ويتناصل من حمل ثقيل يضئيه ويرهق كاهله ، ويعجز عن تحمله وحده . نعم ، انه يبت الأمين كل أسراره، جنيلها وحقيرها، دون أن يتعرض للخطر الذي تنصل عليه الحكمة القائلة : ان السر اذا تجاوز الاثنين ضاع . لأن الاثنين هما الشفتان . وهذا الأمين لا شفة له . لانه ليس من خمودم . وإنما هو خشب في صورة انسان !

ويمد السلطان يده الكريمة لاما الصورة الخشبية لتطمئن نفسه ، فيرى ، ويا لغرابة ما يرى !! حتى الخشب يضيق صدره عن حفظ الأسرار . ان الصورة نخرت ، كانوا اصابها سوس من جراء ما يبتها

الوزير من أسرار فتاكه .

فإن كان الخشب الصلب لا يفوی على تحمل
الأسرار ، فما بالك بالقلوب ، وهي مضافة من دم ناعمة ؟
ومن يسرى ؟ قد يكون هذا هو السر في انتصار
الناس للسر ؟

الرباط 1943